الفن الإسلامي و التجريد الحديث

الدكتورة ثريا بن مسمية
المعهد العالي لأصول الدِين - تونس

الملخص :

الاصطلاح على فن التجريد الاسلامي بفن التوحيد هو انسجام مع المدونة الفكرية الإسلامية ؛إذ غاية الفن الاسلامي الجمال الباطن لا العرضي الظاهر.

على هذا الوجه كان فنا ذا خصوصية ٱبداعية ؛ٱعتمد لغة الشكل من خلال الزخرف والخط؛وقد التقى في هذه الأسس والفن التجريدي الحديث بما هو فن لا تصويري.

هذه 'المعاصرة'مابين الفن الإسلامي والفن التجريدي الحديث تفرض علينا قراءة تأويلية تأصيلية للفن الاسلامي بما هو فن مطلق ٱعتنق البعد الروحي فخرج عن حدود الزمان والمكان ليتسم بالأبدية لدرجة تزامنه الإبداعي والفن الحديث .

الكلمات المفتاحية : الفن ، التجريد ، التوحيد ، البعد الروحي ، الابداع

Summary:

The Chronology of the art of monotheism in the realm of The Herminotate of the Abstract.

The term on the art of abstract in islam as the art of monotheism, is in harmony with the Islamic Religiouscode. As the ultimate target of Islamic art is the inner beauty, not the liniar, apparent one.

In this way it was an art of creative peculiarity that have used the language of form through decoration and calligraphy; and he met in these basics with the modern abstract art which is non-graphic art.

This 'contemporary view' between Islamic art and modern abstract art imposes on us an interpretative interpretation of Islamic art, which is an absolute art that embraces the spiritual dimension and went out of the boundaries of time and space to be eternal to the point of its synchronization of creative and modern art

Key words: art, abstraction, monotheism, spiritual dimension, creativity

الهيرمينوطيقا بما هي نظرية التأويل هي فعل تأصيل للنص المقروء، أي هي عملية فهم له بعيدا عن ضروب التكرار والمعاودة والاجترار، فهي بالدرجة الأولى اختراق لكشف المعنى وتفسير الرموز، هي حفر في اللغة ورجوع بالنص لتاريخه المفاهيمي[1].

على هذا الوجه من المجاهدة والتأصيل للنصوص يكون بحثنا في الفن التجريدي الإسلامي بما هو " فن توحيد" مقابله للتجريد بمعناه الحديث.

ونعت التجريد في الفن الإسلامي بالتوحيد يعتبر ضرورة اصطلاحية تتماشى وتتناسق والمنطق العام لهذا الفكر.

فجوهر الفكر الإسلامي ومنطقه الداخلي هو "التوحيد" بما هو قوام الحضارة الإسلامية شكليا وجوهريا، فعلى أساسه تقام القوانين الداخلية لكل النشاطات الإنسانية في المجتمع الإسلامي، فكرة التوحيد على هذا الوجه تقدم أفضلية الروحي على الظاهري، والجوهري على الشكلي، كما عرضية الحياة والوجود مقارنة بجوهرية عالم الغيب والمطلق.

وفي هذا التأويل الإسلامي لمعنى التوحيد يقول ابن عربي في كتابه التجليات "التوحيد علم، ثم حال، ثم علم، فالعلم الأول توحيد الدليل وهو توحيد العامة، وأعني بالعامة علماء الرسوم، وتوحيد الحال، أن يكون الحق نعتك، فيكون هو لا أنت في أنت، والعلم الثاني بعد الحال توحيد المشاهدة، فترى الأشياء من حيث الوحدانية، فلا نرى إلا الواحد وبتجليه في المقامات يكون الوجدان والعالم كله وجدان"[2].

الفن الإسلامي إذن هو فن موحد، يفقد فيه الموضوع اليومي قيمته الجوهرية، لتكون غايته شكلية روحانية، أي أن المتعة الأصيلة في الفنون الإسلامية ترتكز أساسا على الجمال الروحاني الباطن المدرك بالبصيرة لا بالبصر، في تلك اللمسات الروحانية التي يضفيها الفنان المسلم على أعماله فينطلق بك إلى عوالم بعيدة وعميقة، لا وجود لها في الواقع الظاهري بل تلمسها روحك من خلال الطمأنينة والراحة في معاينة الأشكال اللامتناهية لعمل زخرفي بألوانه المتناسقة إلى حد الشعور بأنك لا تعاين عملا فنيا بل تدخل في حضرة رؤى قدسية ذات نزعة صوفية للجمال، فيها زهد بالعرضي والحسي واحتفاء بالروحاني واللامتناهي.

غاية الفن الإسلامي الجمال الباطن، ولعل هذه المفهمة للجمال هي ما جعلته فنا موحدا إلى حد قول الغزالي في كتاب إحياء علوم الدين "إنّ الجمال ينقسم إلى جمال الصورة الظاهرة المدركة بعميق الرأس، وإلى جمال الصورة الباطنة المدركة بعين القلب ونور البصيرة، والأول يدركه الصبيان والبهائم، والثاني يختص بإدراكه أرباب العقول، ولا يشاركهم فيه من لا يعلم إلا ظاهرا من الحياة الدنيا"[3].

تأويلنا للفن الإسلامي بما هو فن توحيد يتمثل أساسا في الكشف عن المحجوب، أو الافتراض الضمني لهذا الفن بما هو تجاوز للعرضي الظاهري لإبراز الباطني والجوهري، فمختلف الفنون الإسلامية من خط ورقش وزخرف غايتها لا تصوير المحسوس بل تجريده لمجرد ذهني غايته التعبير عن أصل الجمال والكمال المتمثل في الواحد المتوحد، لذا هو يتعالى عن الواقع ويبحث في الحركة الفنية المجردة، فهو كما يقول عفيف بهنسي "إبداع لواقع جديد مختلف عن الواقع المألوف، وهو وسيلة التعبير عن البراعة لتحقيق متعة مفرحة"[4].

لغة الشكل، الخط، الهندسة، بصفة عامة في الفن الإسلامي هي لغة التجريد والتجرد من كل ما هو مادي، هي تجاوز للعالم المنظور إلى عالم موعود، هندسة روحانية توقظ الإحساس وتمتع العين بالمختلف عن المتداول والمرئي العادي، فتجعل الرؤيا تواكب البعد المفهومي للفن، وتنقل العين من سراب الواقعي إلى حقيقة اللامرئي فيكون بذلك الفن الإسلامي جسرا لرؤية اللامرئي، وأسلوبا لرفع الغشاوة عن العين المجردة لتدرك قدرتها على رؤى مخالفة للمحسوس، حينما تقرأ لغة الشكل من مستقيم ومنحني ومغلق ومفتوح كما تعي معنى مرور وتطور السطر من نقطة إلى دائرة ثم سطح.

لكن هل يُشرّع لنا كل هذا البيان في خصوصية فن التجريد الإسلامي القول بزمنية "فن التوحيد" لفن التجريد المعاصر ؟

ألا يُعتبر الفن التجريدي المعاصر حدثا فنيا مطلقا، والفن الإسلامي ما يُعدو أن يكون إلا استجابة لضرورة فقهية فيها تحريم للتصوير الواقعي والكائنات الحية ؟

وهل من مشروعية لإقامة مقاربة ما بين فن إسلامي قديم وفن تجريدي حديث، أي بين فن توحيدي وفن شكلي يعتبر ظاهرة معاصرة ومتقدمة في تاريخ الفن ؟

قد يعتبر الإشكال الرئيسي لمبحثنا هذا هو تقديم تعريف واضح للفن الجريدي أي لهذا الشكل الفني الذي اعتبره البعض نقلة جذرية ونوعية للفن المعاصر، ولا يرجع أشكال التعريف إلى غيابه بل على العكس إلى كثرة التعريفات المقدمة له، فكما يقول جورج روك في كتابه ما هو الفن التجريدي "الآن، وبما أن كل شيء مترابط، يصبح من الصعب جدا تحديد من أين أتى الفن التجريدي، ما دمنا لا نملك فكرة عما هو...نحن نردد إذا لسؤال : كيف تعرف الفن التجريدي"[5].

فن الرسم التجريدي أو اللاتصويري non figuratifs أو اللاموضوعي non objectif هو تيار فني عالمي، هذا الشكل الفني، يعتبر ظاهرة معبرة للنشاط الفني الحديث، كما يعتبر ثورة استطبيقية أعادت صياغة العديد من المناهج والمعايير الشكلية.

وبهذا عبر فن الرسم التجريدي مثلا عن تحرر الرسام من الضرورة الطبيعية والتشخيصية للأشياء، فاقتصرت لوحاته على خطوط ومساحات، أو على أشكال وألوان يشكل تقابلها وتجاورها وتداخلها موضوع العمل الفني وغايته الأساسية، فكما يقول "ميشال سوفور "تعدد أشكال التعبير قد كان أحد الخصائص الأكثر تفردا لفن الرسم التجريدي"[6].

أشكال التعبير هذه لم تكن على صلة لا بالظواهر الخارجية ولا بالعالم المرئي، والفن التجريدي دائم السعي إلى تخطي الصورة والتمثيل الصوري رافضا المحاكاة والتقيد بالمنظور والطبيعة، فالعمل التجريدي يعبر عن تحرر الفنان من ضرورة تمثيل الأشياء كما تمثل له في الطبيعة، ويستبعد الصورة المحسوسة، بل ويسعى إلى أن يستخلص من المحسوس شيئا هو منه بمثابة المفهوم أو الفكرة من دون أن يفقد العمل الفني قيمته الفنية الإبداعية، ودون أن يفقد ما يتضمنه من مضامين خاصة، فبدلا من أن يحاكي الطبيعية ويصور ما هو مرئي، واقعي، بات مع التجريد مع الفكرة والشعور.

يحاول الفنان التجريدي على هذا الأساس أن يستخلص من الصورة المحسوسة جوهرها أي روحها المفهومية أي أن يجعل من الأشكال في تجاورها والخطوط في تقاطعها نموذجا مثاليا للحقيقة الفنية المحسوسة، من غير أن يلتصق إنتاجه الإبداعي بالتصوير الواقعي لما هو موضوعي، بهذا يمكن أن نطلق لفظة التجريد في فن الرسم على نوع من الفن ابتعد عن تمثيل الطبيعية فكان استخلاصا لجوهر من الشكل الطبيعي وعرضه في شكل جديد.

وقد يكون ذلك ما عبر عنه "ليوناردیفنشي" بقوله يا من تبحث عن الأشياء لا تقتصر على معرفة الأشياء كما تنتجها الطبيعة، لكن تعود على معرفة أصل الأشياء المرسومة في روحك"[7].

هذا التعريف الاصطلاحي لفن التجريد يضعنا في إحراج مفاهيمي إذ كيف للفن الإسلامي كفن تجريد أو فن توحيد كما سبق ونعتناه أن يكون متزامنا وفن التجريد الحديث بما هو ثورة في عالم الفن؟

للإجابة عن هذا السؤال والخروج من هذا الإحراج المفاهيمي نحن بجاحة إلى قراءة تأويلية للفن التجريدي، وإلى قفزة مغامرة في الفهم تتخطى حدود الزمان والمكان، وهذا ما قد عبر عنه شلايرماخر في إطار حديثه

عن التأويلية Herméneutique بالمعاصرة بين القارئ ونصه وبين المبحث وباحثه، هذه المعاصرة تخص زمانية(*) مطلقة في البحث وتنطبق في شرحنا على معاصرة فن التوحيد لفن التجريد الحديث أو ربما حتى أسبقية فن التوحيد في التجريد على فن التجريد الحديث.

التعريف إذن لفن التجريد يتطلب فهما ديناميكيا ذا أبعاد فلسفية تاريخية له، لا فهما محنطا تأريخيا يقدم التجريدي الفني الإسلامي كشكل فني بال مقابل الفن التجريدي الحديث كثورة فنية استطيقية.

كما أن تعريف الفن التجريدي يعتبر مجازفة تخرج البحث عن طابعه النسقي والعلمي، وذلك راجع إلى كثرة التعريفات كما تنوع الاتجاهات الفنية التجريدية، وتعاقب مؤسسيها، فلا تعريف كامل لهذا الفن أو بالأصح لا نستطيع حصر هذا الفن داخل إطار زماني فننعته بالحديث أو المعاصر أو القديم حتى فكما يقول جورج روك: "الآن، كما أن كل شيء مترابط، يصبح إذا من الصعب تحديد من أين أتى الفن التجريدي ما دمنا لا نملك فكرة عما هو...نحن نرتد إذا لسؤال : كيف نعرّف الفن التجريدي؟"(8).

لقد ظهرت التجريدية في الفن الحديث بصور متعددة وارتبطت بالاتجاهات التجريدية المختلفة، من خلال إبداعات فناني هذه المدرسة وأشهرهم "فاسيلي كاندنسكي" الذي قدم كتابه "الروحي في الفن" Du spirituel dans l'art سنة 1912 وكتابه "نقطة، سطر، سطح" Point, ligne, surface سنة 1926 وكذلك "العالم من دون الأشياء" Le monde sans les choses سنة 1927 إلى جانب عدة مقالات في مجلة "دي ستيل" سنة 1917 إلى جانب "موندريون" و"كازمبير مالفيتش" وغيرهم من رواد الفن التجريدي الحديث.

لكن يجب التأكيد على أن ظهور الشكل المجرد في الفن الحديث كان نتيجة لعدة عوامل مركبة تضافرت وأدت إلى بلورته، فقد التجأ الفنان التجريدي إلى هذا الشكل الفني كتعبير عن حالة خوف وقلق مما أدى به إلى عدم الوثوق بعالم المحسوسات وبمنجزات الحداثة وذلك نتيجة للحرب وعدم الإحساس بالأمان، فكان الأسلوب التجريدي أحسن ملجأ ومهرب للتعبير عن الفراغ الروحي والإحساس بالحاجة إلى عالم مخالف ومناقض لما هو مادي أجوف.

هذا البعد التاريخي لظهور فن التجريد الحديث يُخفي خلفه مراحل سابقة للتجريد الفني هي ما أطلقنا عليه نعت "فن التوحيد" أي التجريد في الفن الإسلامي، ولعل دراسي الفن الحديث والمعاصر يرون مبالغة أو مجازفة كبرى في إرجاع فن التجريد الحديث إلى أسس الفن التوحيدي، فتاريخيا أي بالمعنى التأريخي سجلت أول لوحة تجريدية على يد الفنان الروسي كاندنسكي سنة 1908 وهذا اعتبر التجريد ظاهرة مميزة لفن الرسم الحديث، فكما يقول كاندنسكي "الانقلاب المثير لعادات وسنن عالم الفن"(9).

لكن ما سبق وأوضحنا من أن القراءة التأويلة لا تكتف بظاهر النص بل هي مجازفة إبداعية تخرج النص من بعده التأريخي إلى معاصرة قارئه، كذلك نحن اليوم نجعل "فن التوحيد" في زمانية و"فن التجريد الحديث" ويشرع لنا ذلك أسس الفن التجريدي، الحديث بما هو فن شكل ولون، فإذا كان كذلك فهذا ما قد سبق وأبدعه الفن الإسلامي من قبل من خلال الخط والزخرف فالتشكيل الهندسي للمنمنمات يعتمد الخط والنقطة، المربع والمثلث وخاصة الدائرة وهذه الأشكال تعتبر من ركائز الفن التجريدي الحديث وهو ما فسره مؤسس الفن التجريدي بمعناه الحديث كاندنسكي بكتاب كامل يحمل عنوان "Point, ligne surface" نقطة، سطر، سطح"

الذي يوضح أن الشكل واللون يكونان في ذاتهما عناصر اللغة الكافية للتعبير عن الانفعال تماما مثلما يفعل الصوت الموسيقي بالروح، كما يعتبر كل تشكيل فني متكون من شكل ولون يعبّر عن الانفعال الداخلي وقادرة ضرورة على تبليغ صوت الفنان الرسام إلى مشاهد لوحاته بكفاءة عالية.

هذا الاكتشاف الذي اهتزت له أوروبا سنة 1908 في القول بأول لوحة تجريدية ثم كتابات كاندنسكي لثلاث كتب تشرع لهذا الإنجاز قد يصطدم في هيرمينوطيقا التجريدي بلا زمنية "فن الوحيد" أو بلغة أصح بمعاصرة "فن التوحيد" و"زمانيته" فيمتلك حق المعاصرة عليه ليكون هو الأصل في التجريد ويصبح الفن التجريدي الغربي مجرد مقلد أو ناقلا أو ربما يكون كاشفا عنه بتغييبه.

الباحث في "فن التوحيد" قد يجد دلائل شتى تبين صلابة هذا الفن من الناحية الإبداعية، فهو فن ينبني على فلسفة كاملة تخص المسلم الموحد، المقدس للنص الديني إلى درجة جعلته يكتب بفن فأبدع في الخطوط، كما أراد زينة الأماكن المقدسة فاختار لها الروحاني من خطوط وأشكال بألوان مختارة بعناية، هذا الدافع الروحاني في الالتقاء بالمطلق والمقدس خلق فنا لا يرتبط بشيئية الحاضر بل تجاوره إلى الأبدية، فحضر في الحديث عن الفن الحديث بل أصبح ما ينعت بالفن التجريدي الحديث مجرد نقل صامت عنه، فمازال هذا الفن ينهل من ذاك وينعته نفسه بالحديث.

قائمة الهوامش

[1]- " معنى التأويل هو إخراج دلالة الشيء من دلالته المجازية إلى دلالته الحقيقية من غير أن يُخلي في ذلك بعادة لسان العرب في التجوز من تسمية الشيء بشبيهه أو سببه أو لاحقه أو مقارنه أو غير ذلك من الأشياء التي عُوّدت في تعريف أصناف الكلام المجازي"، فصل المقال.

[2]- ابن عربي، التجليات، المطبعة الملكية، الغرب 1964، ص 22.

[3]- الصائغ سمير، الفن الإسلامي، قراءات تأملية في فلسفته وخصائصه الجمالية، دار المعرفة، بيروت-لبنان، ص 114.

[4]- عفيف بهنسي، حمالية الفن العربي، الكويت، 1979، ص 76.

5 - « Cependant, comme tout et lié, il est bien difficile de déterminer d'où vient l'art abstrait si l'on n'a pas déjà une idée de ce qu'il est… Nous sommes donc renvoyés à la question : comment définir l'art ? ». George Roque, Qu'est ce que l'art abstrait ? Gallimard, 2003, p 13.

6 -« La multiplicité des formes d'expression à été une des caractéristiques les plus singulières de la peinture abstraite ».

Michel Seuphor, La peinture abstraite, sa genèse et son expression, Flammarion, 1964, p 67.

7 - « O, chercheur des choses, ne contente pas de connaître les choses telles qu'ordinairement la nature les produits, mais réjouis-toi de connaître l'origine des choses qui sont dessinées dans ton esprits », Marcel Brion, Art abstrait, Paris, Juin 1963, p 53.

[*]- الزمانية هنا حسب شلاير ماخر ليست بمعناها البسيط أي بمعنى الماضي الذي نقول عنه ما لم يعد وعن الحاضر ما هو كائن والمستقبل بما سيكون بل بمعنى التقاء النص بنظيره وقارئه كما التقاء فن بشبيهه أو مثله.

[8] - Cependant, comme tout et lié, il est bien difficile de déterminer d'où vient l'art abstrait si l'on n'a pas déjà une idée de ce qu'il est : … Nous sommes donc renvoyés à la question : comment définir l'art abstrait ? » George Roque, Qu'est ce que l'art abstrait ? Gallimard, 2003, p 13.

[9] - « Le bouleversement provocateur des coutumes du monde de l'art », Kandinsky- Du spirituel dans l'art et dans la peinture en particulier- Ed établie et présenté par Philippe Sers Denoel, p 10.